هنا هو العجز الفردي . فكما ان الهرب من المخيم هو هرب فردي ، في سبيل الوصول الى الكويت . فان طريق هذا الهرب هي طريق فردية ، من يستطيع ان يتكلم مع الاخر داخل جهنم الخزان في هذا القيظ . ويموت الثلاثة ، كل على حدة ، دون ان نسمع ايقاع موتهم الفردي .

الدلالة الثالثة: هي المكان. الصحراء. الهرب من خزان المخيم يجب ان يمر بالصحراء. كنفاني يلتقط هنا ظاهرة اجتماعية . ظاهرة الهرب الفلسطيني الى الكويت ويرمزها في سبيل تعميم دلالتها . الصحراء هي العطش ، والموت ، والقيظ الشديد . الماء بعيد والبحر لا وجود له الا خلف الذين يهربون في ذاكرتهم — شط العرب — او على مقاعد الدراسة . فكأن الهرب هو مدخل الى الموت الفلسطيني ، المجاني ومكوث في الصحراء ، ثم انزواء امام القمامة في الكويت .

هذه الدلالات الثلاث تتشابك لتشكل مدخلا الى العلاقات التي تقع خلف الرمز . العلاقة المحددة تستند بدورها الى شخصيات رمزية . ابو الخيزران هو رمز وواقع للعجز الفلسطيني (العربي) . يقود الخزان ، وهو عاجز جنسيا . ويموت الذين في الداخل ، لان رجال الحدود يمازحونه حول علاقات وهمية يقيمها مع عاهرة في البصرة. العلاقة التي تلف الابطال الثلاثة هي في هذا العجز الذي لا يسمح لابي الخيزران بالتملص من رجال الحدود ، ثم يقوده الى رمي الجثث وهو يتساءل لماذا لم يقرعوا ؟ فيأتي تساءله هو الاخر مؤشرا رمزيا على الاستحالة ، استحالة الفعل . فقيادته للشاحنة ، هي دليل على وصول الهرب الفردي الى نهاياته المسدودة . الى اين يقود ابو الخيزران جثث رفاقه المحترقة داخل خزان ماء فارغ . الى الموت المجاني من شدة الحر ! هنا المفارقة الصارخة التي تضبط ايقاع الرواية وتجعل من علاقاتها صدى لعلاقات اجتماعية — سياسية اكثر اتساعا وحركة .

صدى العلاقات ، هو ما يتردد في الرواية ، فكما تردد الصحراء صدى صوت المؤلف ، يردد كنفاني صدى العلاقات الاجتماعية في سبيل ضغطها وايصالها الى الموت . نلمح ثلاث شخصيات رئيسية ، تمثل أجيال الفلسطينيين المختلفة ، ولا نلمح من حياتها سوى الامور التي تتعلق بسبل العيش . واذا كانت شخصية اسعد تحمل معها ماضيها السياسي — الهرب من السجن — فان هذا الماضي ليس مشتركا مع ابي قيس او مروان . الثلاثة يبحثون عن لقمة العيش ، يستعيدون في شريط ذكرياتهم تفاصيل الحياة اليومية ، وبعض الذكريات عن الوطن . لكن عالم الذكريات يضغط حتى النهاية ، وتقوم الرواية بضغطه في حدود ضيقة ، وكأن مية الخزان اصبحت قدرا فلسطينيا . التركيز على صدى العلاقات الاجتماعية وحدها ، لا يسمح لنا باكتشاف مداخل الخروج من الخزان او القرع على بابه على الاقل . نحن فقط امام لوحة مجتزأة تجري صياغتها في سبيل الوصول الى النهاية . تبدأ الرواية من نهايتها ، ولا تسمح للتداخل او للتداعيات بالانحراف عن خط وصولها : الموت . لذلك تصبح العلاقات اصداء . نحن امام اصداء الواقع الفلسطيني .

هنا نعود الى الرمز المركزي الذي يلقي بثقله على الرواية . فاذا كانت العلاقات غائبة . فان الرمز يحل محلها ليقوم بردم الفجوة الايديولوجية بين الكتابة وطموحها . الرمز الروائي هو هرب من الكتابة . نعني بالرمز هنا ، الشبكة التي تلخص في نقطة مركزية واحدة جميع التفاصيل ، لانها تعطيها المعنى في النهاية . فالخزان هو هذه الشبكة الواضحة والمحددة . انه لا يرسم ظلاله على الشخصيات ، بل يرسم